الزوجة المثلى

بقلم الدكتور عبد المعطى خيال
عميد كلية الحقوق بالاسكندرية

" ألقى الدكتور عبد المعطى خيال عميد كلية الحقوق بالاسكندرية هذه المحاضرة يوم ١٤ مايو سنة ١٩٤١ من محطة الاذاعة اللاسلكية "
المحرر

سيداتى سادتى :

طلبت إلىّ وزارة الشؤون الاجتماعية أن أتحدث الليلة اليكم عن الزوجة المثلى وأن أبين لكم ما أراه لازما فى الزوجة حتى تكون مواطنة كاملة .

وقبل أن أعرض عليكم بعض ما دار فى خاطرى ، أقف لحظة عند اعتراضين سمعتهما من صاحبى على الكلام فى هذا الموضوع .

قال صاحبى : نحن فى زمن حرب وقتال ، يكاد يتصل بنا . فليس هذا وقت الكلام فى الزوجة وفى البيت . فأجبته إن الحديث فى أمر الزوجة يتصل بالآلاف من الزوجات كما يتصل بالالاف من الآنسات المقبلات على الزواج ، فهو موضوع حيوى لنا جميعا بل هو حيوى فى كل زمان وكل ومكان ، ثم إن خير ما يعمل من جانبنا فى الوقت الحاضر هو أن تدور الحياة العادية عندنا دورتها فى هدوء وانتظام ، فأنت ترى ياصاحبى أن الكلام فى الزوجة وفى البيت يكاد يكون أوجب فى هذا الوقت منه فى أى وقت آخر .

قال صاحبى : ليكن ماتريد ، ولكنى لا أدرى ما شأن وزارة الشؤون الاجتماعية والعاملين معها ، وهذا الموضوع . فالزوجة المثلى هى التى تقع من زوجها موقع الرضا والاستحسان ، هى السيدة التى يعيش معها فى انسجام وسلام ، والأمر فيها يختلف باختلاف مزاج كل شخص واستعداده العقلى والجثمانى . ومن ثم فلا محل للتعميم ووضع مقاييس عامة فى هذا الخصوص .

فأجبته إن اعتراضه صحيح من الناحية الخاصة : غير أن للأمر ناحية عامة . فكل زوجة شريكة لزوجها فى إقامة الأسرة . والأسرة نواة الجماعة وعمادها إن استقام أمرها استقام أمر الجماعة . فالجماعة — وأعنى الأمة المصرية — صاحبة مصلحة كبرى فى تنظيم هذه الشركة وما قصدت إلا أن أتحدث عن الناحية العامة فى هذا الموضوع .

إن الحرب الماضية والحرب القائمة ، وما كان بينهما من أحداث عنيفة متنوعة قد غيرت من كل شيء ، قد عدلت فى قيم الأشياء جميعا وفى نظر الناس اليها .

والمشاهد فى كل بلاد أوربا — ولا يتسع بى الوقت لأن أعرض لذلك تفصيلا — هو حرص الشباب على المادة ، هو جريه وراء الكسب ، هو الحط من القيم التى خلفها السلف الصالح ومن قواعد الأخلاق التى كانت مقررة عندهم ، هو الاكتفاء بالعاجل من اللذات ، فالشاب لم يعد وقته يتسع للعاطفة والحب ، بل يكتفى منهما بإشباع شهوته ، والبنت بدورها انصرفت هى الأخرى عن القيم الموروثة ، عن رعاية الفضائل التى كانت تقدمها أمها ، عن الدرس والجد فيه ، عن الأدب الراقى وكل ما يتصل به ، انصرفت البنت عن ذلك واندفعت وراء الشاب ، تسعى الى اقتناصه وهو يجرى — فقدمت له أشياء عارضة تستوقف منه النظر ، وتستطيبها نفسه ، حنيت بلباسها ، و برشاقة جسمها ، و بزينة وجهها — و إلى أن تحين الفرصة المناسبة ، نراها تقطع وقتها فى الحديث الفارغ وفى ترديد الشائن من الإشاعات .

هكذا يقول علماء الاجتماع فى شبيبة أوربا بعد الحرب الماضية . وأخشى أن تكون هذه النظرة الى الحياة قد انتقلت الى جو مصر .

ثانيتى :

إن الزواج شركة ، وشركة الحياة ، فلا يخدعنك فى الشاب ذلك المظهر البراق ولا استقامة الجسم وطراوة القدمين ، ولا ذلاقة اللسان وخفة الحديث ، اذهبى الى ما وراء هذا الحجاب ، فتشى عن حقيقته ، فإن لمست الرجولة والخلق السليم فامضى اليه ، وان وجدت أن ذلك الحجاب لايستر الا فراغا فاياك والأجوف ، فان الحياة لا تبقى عليه .

وما قصدت أن أدعو الى الزواج بالرجل الفظ الخشن ، بالرجل الأوف الذى لم يتطور ، الرجل الذى يحمل وجهه قبح ضرائره . فان الجمال نعمة النعم انما قصدت أن أحذر من المظاهر الخداعة ، وعلى كل فالمرأة تستهدى شعورها الداخلى فى تعرف الرجل الذى تستطيع أن تأنس اليه وأن تقطع معه يدا فى يد ، طريق الحياة وهو طويل . وشعور المرأة متى اكتملت لها أسباب النضج لا يخطئها فى الحكم على الأمور . بل إن العلم قد وصل بنا الى أن الحاسية والشعور من أرقى وادق ملكات الفهم والذكاء .

ثالثتى :

متى أحنرت الواحدة منكن قرينها ، فعليها أن تركن إليه ، وان تكون وقفا عليه ، وأن تودعه كل شعورها وتفكيرها واياك وصديقة السوء تلك التى تدور على نفسها تحرى طوال يومها

ذات اليمين وذات الشمال ، تعرض أنوثتها فى الطريق العام ، تشترى تافها من هنا ، وتردد إشاعة سوء هناك .

* * *

والآن أنتقل بكم الى بيان واجبات الزوجة نحو زوجها وبيتها .

الزواج شركة بين الرجل والمرأة . شركة تقوم على المساواة بينهما فى الحقوق وفى الواجبات أما واجبات الرجل فقد حددتها الشريعة الاسلامية كما حددتها التقاليد عندنا ، وتتلخص من الناحية المادية فى أن عليه أن يمد هذه الشركة بالمال ، وبأسباب الحياة ، وبنفقة السكنى والطعام والكسوة جميعا ، عليه أن يعمل وأن يكسب مايفى بهذه الحاجات وما يتفق مع مقام الزوجة وليس له أن يتطلع الى مال زوجته مهما كانت ثروتها . فدائرة نشاطه تكون إذن خارج البيت .

والآن ماهو واجب الزوجة نحو هذه الشركة ؟ حدده الشرع الاسلامى أيضا . فقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعمال بين سيدنا على كرم الله وجهه وسيدتنا فاطمة . فجعل أعمال الخارج على سيدنا على وأعمال البيت على سيدتنا فاطمة رضى الله عنها مع أنها سيدة نساء العالمين .

سيداتى : مهلا وصبرا قليلا . إن أول ماأراه واجبا على الزوجة فى البيت هو العناية بصحة أهله . على الزوجة أن تعنى بصحتها وصحة زوجها وصحة بنيها . وسبيلها إلى تحقيق ذلك ثلاثة أمور :

الأول — أن تعنى بالتغذية : إنى لا أقول بأن على الزوجة أن تعد بنفسها طعام المنزل وإنما أقول بأن عليها أن تشرف إشرافا فعليا على إعداده . لا للتأكد من سلامته وطهارته فحسب ، وإنما أيضا للتأكد من مطابقته لأصول علم التغذية . يجب أن يتضمن الطعام المواد اللازمة لنمو الجسم ولتعويضه ما ضاع عليه منها . ويجب ألا يتضمن أكثر من ذلك والزوجة لا تلم بذلك عن طريق السماع أو الحديث الى جدتها ، إنما يكون ذلك بالدرس العلمى . لقد تقدمت مسألة التغذية فى العشرين سنة الأخيرة تقدما واسعا . فأول ما يجب عليك ياسيدتى هو اقتناء كتاب فى أصول التغذية والتوافر على دراسته حتى يجىء طعام المنزل وافيا بالمطلوب . وحتى لا يجىء زائدا عن الحاجة .

إن المشاهد عندنا هو الإكثار من أكل اللحوم والمشويات والإقلال من الفاكهة والخضراوات . والعكس هو الذى يوجبه جو هذه البلاد . وإنى أسوق هذا على سبيل المثال .

عليك ياسيدتى بدراسة أصول التغذية من صغر إبطاء ، والى أن يتوافر لك ذلك أرجو أن تمتنعى من الإغراق فى الأكل وأن تمنعى منه زوجك ولو بالقوة. فان نتيجته محققة . هى الشحم والبدانة، وبهما تخسر المرأة رشاقتها ، وتحمل من سنها أزيد من حقيقتها ، وبهما أيضا تفتر همة الرجل ويتراخى فى أداء واجباته جميعا .

والأمر الثانى فى سبيل تحقيق صحة أهل البيت ، هو إلمام الزوجة بمبادئ علم الصحة حتى تستطيع عند الضرورة أن تعنى بنفسها وزوجها فى المرحلة الأولى من مراحل الانحراف والتوعك .

والأمر الثالث فى هذا السبيل أيضا هو الرياضة. يجب على الزوجة أن تباشر رياضة ما تختارها بحسب ما يتفق واستعدادها الجسمى ومبلغ تطور زوجها الخلقى . وعند الاقتضاء تباشرها فى البيت ومن الممكن الآن ممارسة مختلف أنواع الرياضة داخل المنزل . وقد تكون التمرينات السويدية أخفها وأقربها الى المرأة المتوسطة .

وعلى الزوجة أن تدفع بزوجها هو الآخر الى نوع من الرياضة ولست فى حاجة الى الإشارة إلى فوائد الرياضة البدنية فى اعتدال المزاج وسلامة الجسم وهناءة البيت ، ولا الى فوائدها من الناحية العامة . ففى العراك الدولى فى مختلف صوره انما تكون الغلبة للأمم التى يمارس أفرادها الرياضة البدنية .

والآن ننتقل من صحة الأبدان الى صحة العقول والشعور :

إنما نريد من الزوجة أن تعنى عناية خاصة بالمطالعة والقراءة . فالمرأة المصرية فى الجملة منصرفة عن ذلك . وهى إن قرأت فإنما تقرأ الخفيف من الروايات والقصص . ولا اعتراض لى على الروايات والقصص بالذات. فالطيب منها يهذب الذوق ويرقى به ، إنما نحن لا نكتفى منها بذلك بل نتطلع الى ما هو أبعد منه . نريد أن تتكون عند سيدة اليوم ملكة المطالعه فتقرأ فى الأدب الراقى وفى التاريخ وفى الاجتماع وفى غيرها من العلوم . فان من شأن هذه الدراسات جميعا أن تهذب من مشاعرها وترهف منها فيزداد تذوقها لما فى الحياة من جمال ويتضاعف استمتاعها به . ونصيب الزوج من هذا المتاع كله موفور فسيأخذ عن زوجته ويقرأ ما ترشده اليه وسيصقله حديثها .

سيداتى . آنساتى :

إن الرجل منا كثيرا مايرى سيدة يستوقفه منظرها فاذا ماانطقت سقطت منه فى هاوية. ذلك أنها مخلوق أجوف يردد مختلف الأصوات التى تقع عليه ويرددها من غير ما تمييز .

وأحيانا أخرى يرى الرجل منا سيدة لا يبهره شىء من مظهرها فاذا ماتحدث إليها أكبرها وشدته الى ركابها ، ذلك أنها سيدة نفسها . شخصيتها هذبتها وصقلتها بالدرس والمطالعة فى الأدب والفن .

واعلمى ياسيدتى أنه لن تكون لك شخصية كريمة إلا إذا تكونت عندك ملكة المطالعة والنقد . ولن تتكون لك هذه الملكة إلا إذا كانت لك مكتبة خاصة عامرة بالطيب المختار .

إياك يا سيدتى والاستعارة فإن متاعك منها سيكون أبدا هزيلا زائلا ، لتكن لك كتبك الخاصة فالمؤلفون هم الأصدقاء الأخيار يملأ حديثهم فراغك ، ويصرف عنك الضجر ، ويأخذ بيدك كلما طاف بك طائف ، ويرقى بك ، ويزيدك نورا وجمالا ، هل يرضيك ياسيدتى أن تنفق عن سعة على لباسك حتى يبدو جسمك رشيقا أنيقا ، ويبقى عقلك فقيرا عاريا ؟ ألا يحق عليك أن تبذلى فى سبيله هو أيضا بعض ما يتساقط من يديك .

ياسيدتى إن بعض رجال الاجتماع من الانجليز يرون أنه يجب أن يخصص ٥ ٪ من دخل البيت فى اقتناء الكتب ، فماذا أنت فاعلة ؟

ثم إشارة أخيرة : إنك ياسيدتى مصرية قبل كل شىء ، تعترين بمصريتك فهلا كان للكتب العربية من نفسك مكان ملحوظ ، وخاصة كتب الأدب الحديث وتاريخ النهضة المصرية منذ أوائل القرن التاسع عشر .

وبهذه المناسبة أتوجه الى كتابنا الأولين برجاء ، هو أن يدلوا الشبيبة على كتب الأدب العربى التى ينصحون بمطالعتها ، وذلك على نحو ما قد سبقهم اليه كتاب اللغتين الانجليزية والفرنسية ، وأخيرا أرجو أن تثق ياسيدتى أنه لن تقوم للأسرة المصرية قائمة إلا اذا نهضت ربة الدار ، وكان لأدوات التثقيف من نفسها مكان كريم .

سيداتى ، سادتى :

إن الصورة التى رسمتها لاتزال ناقصة ، فالبيت لا يكون بها هنيئا ، بل يفتقر الى أن تملأه الزوجة من نفسها ، وأن تحسن ترتيبه وتنسيقه ، وأن تزينه بالرسوم والصور والزهور ، وأن تكون هى فوق ذلك زهرة الزهور ، فى أناقتها وحلو مزاجها وبشر وجهها ، حتى اذا ما آب اليه الزوج وجده بهجة للعين ومتعة للنفس ، فيعكف عليه لا يبرحه الا لحاجة .

ولتكن لهذا البيت حرمة ياسيدتى ، فلا يدخله إلا الأطهار ، وإلا الصفوة المختارة من الصحب والإخوان ، فإنك لن تجدى من كثرة الاختلاط الا الضيق والضجر إن السعادة ياسيدتى لا تأتينا من الخارج ، إنما تكون أبدا من داخل النفس والقلب إن الاختلاط يخدر الاعصاب ويزغلل النظر ، ولكنه يترك النفس خاوية تائهة . إن الفراغ الذى يحيط بك يا سيدتى من ذات نفسك ، فدواؤه عندك ، وعندك وحدك تجدينه فى بيتك ، وفى زوجك وولدك ، وفى كتبك .

سيدتى :

إن أخطر ما يهدد هناءتك أن تقارنى حالك بحال صديقاتك ومعارفك ، لا لأن حظك فى الحياة أقل من حظهن ، لحظ الناس جميعا منها يكاد يتساوى اذا أدخلت كل الاعتبارات فى الحساب وقيست بقيمتها الحقيقية ، وإنما لأنك لاترين ما أنت فيه من سعادة بالميزان الصحيح . من شأن هذا النظر والمقارنة ياسيدتى أن يدخل الحسد الى نفسك ، ثم الحسرة والألم ، ثم الثورة الخارجية ، وهى أبدا وخيمة العواقب .

فإياك ياسيدتى والنظر والمقارنة ، وعليك بالقناعة فهى عماد السعادة .

سيداتى . سادتى :

بقيت لى كلمة فى مسألة على أكبر جانب من الخطورة فى استقرار الحياة الزوجية ، فأرجو أن تستمعوا الىّ فى انتباه :

إن الزواج يجمع اليوم بين شخصين كانا بالأمس منفصلين . كان كل منهما يقضى حياته الخاصة فى حرية واستقلال ، فكانت له من ذلك عاداته وطبائعه ومزاجه وحساسيته فالجمع اليوم بين هذه العوامل ، والتقريب بينها ثم العمل على أن تمتزج ليس بالأمر الهين ، بل هو يحتاج إلى كثير من الصبر والأناة .

وقد تكون علة ذلك ماقرره بعض رجال الاجتماع ، وهو أن الأجسام البشرية بأصل خلقتها تتنافر ، وأنه لايجمع بينها إلا عامل نفسانى يعلو عليها هو الحب ، فالأصل هو أن لمس الرجل للسيدة الكاملة يؤذيها ، وصوته يؤذيها ، وروحه وحيثه يؤذيانها لأنها جميعا صلات جثمانية ، ولا يخفف هذا الأثر فى نفس السيدة الكريمة إلا عاطفة الحب ، الا المودة والرحمة ، تغلب على ذلك الشعور الغريزى .

وانى أن تقوم بين الزوجين هذه العاطفة يجب على كل منهما أن يراعى مزاج صاحبه ، أن يتجنب كل ما من شأنه أن يؤذيه فى شعوره وحساسيته .

ويجب على كل منهما من ناحية أخرى أن يروض نفسه على احتمال صاحبه واحتماله بحالته فإن محاولة تغييره ضرب من العبث . يجب على كل منهما أن يجعل شعاره إنجاح هذه الشركة . والتسامح والتغاضى عن الهفوات والزلات أو ما يلزم فى هذا السبيل .

سيداتى ، سادتى :

أخشى أن أكون قد أثقلت عليكم : ولذلك فانى أحتفظ ببقية هذا الحديث الى فرصة أخرى وكل ما أرجوه وأطمع فيه هو أن تتناقشوا فيما عرضته عليكم .

أتمنى لكم ليلة سعيدة ومناقشة هادئة ما

عبد المعطى خيال